

السؤال

أنا لست أفهم لماذا يركز القرآن في ظاهره على ذم غالبية الناس. وكيف علينا أن نفهم هذه الآيات على أننا مشمولين فيها أم مستثنيين. أيضا كنت أسأل أنه إذا قرأنا مثلاً قوله تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) هل علينا أن نستثني أنفسنا أم لا ؟ لأن كل إنسان في العادة ينظر لنفسه أنه مثالي في كل شيء لكن نحن يحبذ أن نعتبر أنفسنا مشمولين في هذا الذكر لأننا أيضا فينا عيوب أم لا؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

إن الناظر إلى أحوال الناس يجد أن الغالب عليهم كما ذكر الله تعالى، فمن جهة الإيمان والكفر، سنجد أن أكثرية الناس كفروا بربهم، وجحدوا معبودهم تعالى .

ومن جهة الصلاح والعبادة، ستجد أن الأقل هم من يحافظ على الصلاة، ويحرص على أعمال الخير، لكن سنة الله تعالى في كونه أن يبقى في الناس أهل الإيمان والصلاح وإن كانوا قلة .

"إن من بين السنن الاجتماعية، التي تقابل الأنبياء وورثتهم في كل مرحلة زمنية تعود فيها البشرية إلى درك الانحطاط : هي قلة الأتباع وكثرة المخالفين.

في شأن العلم يخبرنا القرآن أن أكثر الناس **لَا يَعْلَمُونَ** بأكثر من صيغة، وهذا العلم المنفي عنهم ، هو العلم المتعلق بالرسالة والإيمان والسنن الإلهية والشرائع السماوية، وليس العلم الدنيوي، لذلك يقول تعالى: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ** [الأنبياء: 24]؛ فغالبية أمم الأرض خلّفت من العمران والآثار والمعارف، ما يدل على أن البشرية تسجل تفوقها في هذا المجال، في كل دورة تاريخية تنهض منها: **وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** [الروم: 6- 7].

وإذا كانت هذه الأكثرية تبني معارفها الدنيوية على اليقين، إلا أنها في شأن الغيب والآخرة تخبط خبط عشواء، وتلتبس الهدى في الظنون: **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** [يونس: 36].

وبالرغم من أن رسالات الأنبياء - جميعاً - تتوافق مع مقررات الفطرة وبدهيات العقول، إلا أن البشرية غالباً ما واجهت الرسل بالتكذيب: **اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** [الأعراف: 3]، وأنكرت الحقيقة

الكبرى: ...إِلَهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ [النمل: 62]؛ وذلك رغم ما أقيم عليهم من البراهين: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بِهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الفرقان: 50].

لذلك؛ يسلي القرآن على خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التقرير: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: ٤٤]، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

وإزاء هذا الإنكار وتغيب العقل، تتفق النتيجة مع المقدمات.. ف لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [يس: ٧]، وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف: 103]، وَإِنْ آمَنُوا فَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف: 106]. وإذا غاب الإيمان غابت ثمرته (العمل الصالح)، ولم تُستخدَم النعم وتوظف الطاقات فيما وهبت لأجله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ [النمل: 73]، رغم إقرارهم بنعم الله عليهم: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ [النحل: 83]، ويصدق في الناس قوله سبحانه: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ [سبأ: 13].

بهذه المقابلة يتحدث القرآن عن الأقلية والأكثرية، وليس في ظل المقاييس العرقية أو الإثنية أو السياسية، إنها الأقلية العالمية والمؤمنة والشاكرة، التي قاومت إغواءات الشيطان: قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 62]، واهتدت بفضل الله تعالى عليها: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء: 83]، فكانت الناجية في مسيرة الدعوة عبر التاريخ، من لدن نوح الذي: وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [هود: 40]، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، يقول تعالى: فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ [هود: 116].

ويقابلها الأكثرية التي: صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ [سبأ: 20]، والتي قابلت الرسالة بالموروث، مهما كان زيفه وضلاله: إِنَّهُمْ أَلفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ [الصافات: 69-71]، وأبَت الاستماع للحق: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [فصلت: ٣-٤]، وكفرت بقاء الآخرة: وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [الروم: ٨].

وكما يُجري القرآن الكريم مقابلة بين الفئتين في الدنيا، يُجري المقابلة بينهما في الآخرة :

فتلك القلة المؤمنة التي استعلت بإيمانها، وقامت بواجبها، واستجابت لنداء الفطرة ودعوة الرسل؛ تُجْزَى بِالْجَنَّةِ، في حين أن تلك الكثرة تواجه اللوم الإلهي .

إن القرآن يُفَصِّلُ في بيان موقف هذه الأكثرية الهالكة، التي تعددت عليها الحجج والبراهين بما يكفي لهدايتها، وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 89]، حين يشير إلى الدافع لتكذيبها بالحق: بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [المؤمنون: 70].

لذلك؛ يحذر القرآن الرسول وأتباعه من إطاعة المخالفين للحق، وإن كانوا كثرة بقوله سبحانه: **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [الأنعام: 116]**، كما يحذرهم من الاغترار بهذه الكثرة: **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ [المائدة: 100]**.

والحكمة في استطراد القرآن لبيان هذه السنة الكونية تتجلى في أمور عدة، منها – والله أعلم –:

– أن في هذا البلاغ المبين لهذه الظاهرة الإنسانية: تأكيداً للأنبياء وورثتهم على صعوبة المهمة التي يقومون بها، حيث إنها بطيئة النتائج، وقليلة الثمرة، وباهظة التكاليف، لذلك؛ فإن عليهم أن يوطنوا أنفسهم على صور التكذيب والجحود، والسخرية والاستهزاء، والإيذاء والتعذيب، والعدوان والبغي.

– كما أن فيه تهيئة لنفوسهم، حتى لا يدخل عليهم اليأس والقنوط ابتداءً، وهم يرون الأكثرية تعرض عنهم، ظانين أن نجاح رسالتهم أمام الله، يقاس بكثرة الأتباع، ما قد يُدخلُ الحزن والهم في نفوسهم.

– أن لا يستوحش الأنبياء بقلَّتْهم، أو يشعروا في ظل هذه القلة بالذل والهوان، فيستسلموا إحساساً بالضعف المادي، ويتخلوا عن نصرته دعوتهم.

– أن يأخذ الأنبياء وأتباعهم لهذه الحقيقة تدبيرها السياسي، بحيث لا يوغلوا في الأماني والأحلام الكاذبة، بعيداً عن أرض الواقع، ولا يقوموا بعمل يقضي على وجودهم ودعوتهم في مهدها، ولا يُستَفْزُوا إلى شيء من ذلك.

فهم مطالبون برعاية هذه الحقيقة في تحركهم في الوسط الاجتماعي، وعلى الصعيد السياسي بشكل متزن، فلا رهبة وخوف مُفْعِدْ، ولا يأس وقنوط مُحِيطْ، ولا تَطْلُعُ مُتَهَوِّراً، ولا تَعَجُّلُ مُهْلِكاً، بل سياسة شرعية حكيمة تراعي القدرات والظروف والفرص.

والم تأمل في الخطاب الإلهي إخباراً وتكليفاً واعتباراً، يرى مدى اعتبار ميزان القلة والكثرة في مسيرة التدافع والصراع الدائم بين الحق والباطل، والصالح والفساد، والعدل والظلم والخير والشر.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون "

انظر:

<http://bit.ly/2Wp2rif>

ويمكننا القول، أنه "بعد رصد الآيات التي تناولت الكثرة: مكية ومدنية، وسواء كانت تلك الكثرة في الأمم، أو الأفراد أو الأشياء ودرسها وتأمل دلالاتها يمكن أن نستخلص في نقاط السنن الماضية والأصول الجامعة في قضية الكثرة على النحو التالي:

1- أن الكثرة شملت في آياتها الأفراد والأمم.

2- أن منها ما يتعلق بالناس، ومنها ما يتعلق بأهل الكتاب، وفي كلّ تمضي ، في سننية مطردة تزيدها الحياة تأكيداً، خاصة في المقدور على معرفته من واقع الناس وأحداث الحياة.

3- أن الكثرة تكون محمودة إذا كانت فيما يفيد ، كالكثرة في عدد القبيل والآل الذين يستعان بهم في قضاء المراد، والتغلب على الأعداء.

4- أن الكثرة تكون محمودة ، إذا كان العدد فيها لا يؤثر على النوع، والكم فيها لا يفسد الكيف، بل يدعمه ويقويه.

5- أنها تكون محمودة في استجلاب الخير، والحرص عليه.

6- أنها تكون محمودة في باب ذكر الله (تعالى)، وشكره وتسبيحه.

7- وتكون محمودة إذا كانت في جانب النفع عامة للبلاد والعباد، كالكثرة في الغيث المفيد الذي يحيي الله به البلاد ويقوت به العباد " .

وانظر هذه الدراسة لمزيد من الفائدة:

<http://bit.ly/2B6R7y6>

والله أعلم .